من بابل إلى الترجمة (برنارد لويس)

مراجعة : أسرة التحرير

يني برنارد لويس بهذا العنوان لهذه المجموعة من المقالات ما ورد في العهد القديم عن تبلبل الألسن ببرج بابل، بحيث احتاجوا إلى المترجمين لكي يتمكنوا من التواصل والتفاهم، ووسط هذا النزاع العنيف على الشرق الأوسط، أوعلى العرب والمسلمين يعرض برنارد لويس، المستشرق المعروف، وأحد كبار العارفين بتاريخ الشرق الأوسط، نفسه شارحاً ومقدماً وموضحاً وجالياً للغموض، إنما بين من ومن هل بين الغربيين والعرب، أم بين العرب والعالم؟ أوبعبارة أخرى: لمن يترجم الأستاذ برنارد لويس، هل يترجم لنا أم يترجمنا نحن للغرب؟ لوكان يترجم لنا لكتب كتابه أومقالاته المجموعة بالعربية، فلم يبق إلاّ أن الكتاب مكتوب أومجموع لإفهام الغربيين أوالإيضاح لهم. ومن أجل هذا الأمر بالذات، أي وظيفة الاستشراق الإيضاحية أوالتصويرية، هاجم إدوارد سعيد هذا التخصص واتهمه بالتشويه والتحيز، متخذاً من برنارد لويس نموذجاً لتلك الحزبية الواضحة في تأمل العرب والمسلمين. وقد ذكر إدوارد سعيد ذلك في كتابه: الإستشراق عام 1978م، ثم دأب على تكراره إلى ما بعد غزوالأميركيين للعراق عام 2003م. ونعرف الآن أنه كان للأستاذ ل لويس دورٌ أيضاً في ذاك الغزو، بشكلٍ مباشر وآخر غير مباشر. الشكل المباشر كمثل في أنّ أصدقاءه وتلامذته من المحافظين الجدد أخذوه للرئيس بوش من أجل أن يشرح له بإيجاز الدوافع والعوامل التي تحرك "أولئك العرب" في حقدهم على الولايات المتحدة وتصرفهم المشين إزاءها، وقد أعطاه بحسب مصادر صحفية موثوقة في النهاية نصيحة محددة: ضرورة مهاجمة العراق لأنَّ العرب لا يفهمون غير لغة القوة! أما الإسهام غير المباشر في السياسات الأميركية تجاه الشرق الأوسط فيوضحها مقاله الذي صار شهياً (جذور الغضب الإسلامي) المكتوب عام 1994م، والذي أعاد نشره في هذا الكتاب، بعد أن استعمله مئات المرات خلال السنوات الماضية، وصولاً إلى كتابيه الآخرين: كيف حدث الخلل(2001م)، وأزمة الإسلام(2003م). وخلاصة ترجمة الأستاذ لويس لجذور الغضب لدى العرب والمسلمين تجاه الغرب أنّ هؤلاء يعانون من "عقدة نفسية" تستند إلى الفشل في بلوغ إنجازات الحداثة الغربية، والتحسر على الأمجاد القديمة للإسلام والتي سلبهم إياها في نظرهم الاستعمار الغربي، فكانت النتيجة حقداً على هذا الغرب، وإرادة لتدميره.

ولوتأملوا المسائل بهدوء لوجدوا إنّ الذنب يقع على عواتقهم وعواتق حكامهم. والدليل على ذلك المصير الآخر للأتراك المحدثين. فقد تهدمت إمبراطوريتهم، واعتدى الأوروبيون عليهم أوأنهم تبادلوا معهم العداء لأربعمائة عام، لكنهم استطاعوا بعد سقوط الدولة والخلافة أن يتخلصوا من أوهام الماضي، وأن يبنوا الدولة الحديثة القوية. فما

ينقص العرب الإحساس بالمسؤولية، والعمل من أجل النهوض بالتعاون مع الغرب، وليس في مواجهته.

يتضمن كتاب برنارد لويس هذا أربعاً وخمسين مقالة، كتبت بين(1957م و2002م)، وقد قسمها المؤلف في ثلاثة فصول: التاريخ الماضي، والتاريخ المعاصر، وعن التاريخ أوفي التاريخ. والفصل الثالث هوأصغر الفصول، وهويتضمن خمس مقالات: الدفاع عن التاريخ، والسير الذاتية لدى الشرق أوسطية وتأملات في الكتابة التاريخية الإسلامية، والأرشيف العثماني بوصفه مصدراً من مصادر التاريخ الأوروبي، والكتابة التاريخية والبعث القومي في تركيا، وعن الاستغراب والاستشراق. وهويذكر أنّ المقال الأخير لم ينشر من قبل، وربما أعده لإحدى المحاضرات التي دأب على إلقائها في العشرين سنة الماضية بعد أن تقاعد من جامعة برنستون، التي أتى إليها من إنجلترا في الخمسينات إلى أن غادرها مطلع التسعينات من القرن الماضي. في المقال السالف الذّكر يقارن لويس بين "عدم اهتمام" الشرقيين المسلمين بالغرب(نموذج حاجي خليفة في القرن السابع عشر)، واهتمام الأوروبيين الشديد بالمشرق الإسلامي. وهوالاهتمام الذي صار تخصصاً في القرن التاسع عشر، والذي مارسه الأستاذ لويس حوالي الستين عاماً، لكنه يسميه تاريخاً ويعتبر نفسه مؤرخاً وليس مستشرقاً.

الأستاذ برنارد لويس أحد كبار العارفين بعالم العروبة والإسلام. وله منذ أطروحته للدكتوراه عن الإسماعيلية، دراسات كثيرة أصيلة تعتمد على البحث العلمي الرصيد والدقيق. لكنه مر بمرحلتين حددتا إلى حدٍ كبير نتاجه كله في العقود الثلاثة الأخيرة على الخصوص: في الستينات قرر الاهتمام بالشرق الأوسط المعاصر، ومنذ الثمانينات قرر الاهتمام بـ"تنوير" الرأي العام الغربي، الأميركي بالتحديد، بشأن العرب والمسلمين. وهكذا فقد قرّر أن يكون "خبيراً" بالشرق الأوسط، يستمع إليه المهتمون والسياسيون، ويرجع لكتبه ومحاضراته الصحفيون، الذين يستطيعون استخدام انطباعاته وأحكامه العامة في مقدمات مقالاتهم وخواتيمها. ومقالاته المنشورة في هذا الكتاب الضخم(438 صفحة من الحجم الكبير) تكاد تكون جميعاً من هذا النوع: يبدأ المقال بعرض الوقائع والقصص تشكل مدخلاً للموضوع الذي يراد بحثه بحيث ينشر المستمع أوالقارئ. ثم يقول الأستاذ لويس، إنّ هذا الانطباع الذي قد ينشأ من هذه القصص أوالوقائع حاد عن الحق فالحقيقة غير ذلك، ثم يعود لعرض أقاصيص ووقائع تنقض أوتخالف ظاهراً ما ورد أولاً، وتنتهي المقالة في القسم الثالث والأخير بتأكيد الانطباع الأول، إنما بتأويل آخر، ليس هوالظاهر أوما يبدوعلى السطح، حسب تعبيره.

وهكذا فخلاصة الأمر في سائر مقالات الكتاب(وأكثرها عن الأوضاع العربية في الأربعين سنة الأخيرة) أنّ هؤلاء ممزقون بين ماضٍ انقضى وما عادوا يملكونه، وحاضرٍ لا يشعرون بالرّاحة فيه؛ ولذلك فهم يعمدون للتسلّح بالماضي من أجل مواجهة هموم الحاضر ومشكلاته فيرتد ذلك السلاح في وجه خصومهم.

وستلقى مجموعة المقالات هذه -ولا شك- نجاحاَ إعلامياَ كبيراَ، كما لقي كتاباه الأخيران السالف الذكر. فهو هنا يعرض خبرات خمسين عاماً وأكثر مخاطباً بالمقالات المتوالية قراءة الغربيين: ألم أقل لكم في العام 1903م وفي العام 1967م، وفي العام 1981م.. الخ إنّ هذا أوذاك سيحدث، لأنني أعرف هؤلاء الناس جيداً؟. والناس الذين يقصدون لويس لا يرون ما يراه في تشخيص مشكلاتهم، الغالب أنّ أكثر العقلاء في أوربا وأمريكا لا يمكن أن يصدّقوا أنّ السّبب هوالإدراك الخاطئ من جانب العرب والمسلمين لقضاياهم مع العرب.